

نصوص مختارة للمعلّم بطرس البستاني

(وفقًا للتسلسل الزمنيّ)

مقدّمة [كتاب دائرة المعارف]

وقد سمّينا هذا التّأليف - دائرة المعارف - فجاء اسمًا على مسمّى. وإذا قابلته الواقفون عليه بعين الإنصاف وخلوّ الغرض بما هو من نظائره عند الإفرنج في هذا الباب يسلمون بأنّه ليس من دونها باعتبار العموم وأنّه أفضل منها وأنفع كثيرًا بالنظر إلى الخصوص من العرب وبعض الإفرنج فقد نقلنا عنهم أطايب ما عندهم مما تلذّ لنا معرفته وتفيدنا مطالعته وأضفنا إلى ذلك أموراً شتّى قد حلت كتبهم منها. فلهم علينا فضل الأسبقية كما أنّ لياقوت الحموي وابن خلكان وابن البقاء والدميري وابن البيطار وكثيرين غيرهم من علماء العرب الأعلام فضلاً عليهم وعلينا في هذا الباب.

وهو غني عن البيان أنّ افتقار المتكلمين باللغة العربيّة إلى الكتب اللازمة في كلّ فنّ ومطلب ممّا يزيد فضل هذا التّأليف عندهم ولزومه لهم وممّا يقوم لنا مقام عذر في ذكر بعض ما ورد من الموادّ في كتب القوم ممّا لا يظهر له في بادئ الأمر أهميّة تجعله يستحقّ أن يُعدّ في مصاف الموادّ المهمّة المدرجة فيه. وقد ذكرنا بعض ما كتنا نحبّ أن لا نذكره لعدم موافقته لذوقنا أو لأننا نحسبه ممّا لا صحّة له من خرافات اليونانيّين وغيرها، على أنّ اعتبار الكثيرين لذلك وميل الناس إلى الوقوف عليه توقف فهم أمور كثيرة على معرفته يمهّد لنا العذر في ذكره وذكر متعلّقاته. وطالما حملنا ذلك على التمثيل بقول الشاعر

وقد يتزيّا بالهوى غير أهله ويستصحب الإنسان من لا يلائمه

على أنّنا قد تجنّبنا كلّ ما هو من قبيل الخلاعة وما يمجّه السمع أو يخلّج بالأدب حتّى التزمنا في بعض المواقع أن نهدّب ما كان من هذا القبيل أو نخدّفه مع الإشارة إليه. وقد جعلنا أساس هذا التّأليف خلوّ الغرض من كلّ وجهٍ والابتعاد عن التحزّبات بحيث يكون كتاباً عموميّاً لكلّ الملل والمذاهب يستفيد منه من لا كتاب له كما يستفيد منه صاحب الكتاب. وإذا كتنا نحبّ أن يكون كتاب مطالعة كما هو كتاب مراجعة قد أدرجنا فيه كلّ ما تصبو النفس إلى الوقوف عليه من أطايب أشعار العرب وترجمة بعض أشعار اليونانيّين والسريران والإفرنج وما هناك من الحكم والأمثال.

ولا حاجة إلى ذكر ما قاسيناه من الصعوبة والتعب في ضبطه ولاسيّما من جهة الأشخاص والأماكن وعدد الأهالي والقياسات والاصطلاحات إلى غير ذلك وعلى الخصوص في الممالك الشريّة والبلدان التي لا تزال أحوالها الصحيّة مجهولة أو مشكوكاً فيها على

أننا لم نأل جهداً في التحقيق والضبط والتدقيق على قدر ما تقتضيه طبيعة الموضوعات ويحتمله المقام. وقد عوّلنا فيه على الأنسكلوبيديات الإفرنجيّة الحديثة وأشهر المؤلفات العربيّة والإفرنجيّة من تاريخيّة وجغرافيّة وصناعيّة وعلميّة ودينيّة وأدبيّة وسياسيّة وهلمّ جرّاً ونقلاً وتلخيصاً وترجمة مع زيادات وإيضاحات وملاحظات اقتضاها المقام. وقد كتبنا إلى الجهات فوردت إلينا الفوائد المحقّقة عن مصادر يُوثقُ بها ويُركن إليها في أمور كثيرة. وأمّا الأشياء التي لا واسطة لنا للتحقيق عليها مشاهدة أو بالمكاتبة فقد اكتفينا فيها بالوقوف على كلام المؤلفين السالفين. وقد اعتمدنا على من يُعتمد عليه من أصحاب المعارف داخل إدارة الدائرة وخارجها ممّن لهم شهرة في علوم وفنون مخصوصة للوقوف على الموادّ قبل طبعها. ولم يؤخّرنا التعب والمصاعب وبذل الوقت والمال واستخدام كلّ ما يلزم استخدامه لكي يكون هذا التآليف حائزاً من الإتقان والضبط والدقّة والمحسنات ما يكسبه رضى العموم وثقتهم وارتياحهم إليه. على أننا مع ذلك لا ندعي السلامة من العثار لأن الجواد قد يكبو والصارم قد ينبو والإنسان محلّ النسيان. فنرجو ممّن وقف عليه أن يتصفّحه بعين الرضى والقبول ويسبل ذيل العفو والمعدرة على ما يعثر عليه فيه من الخلل لأنّ الكمال لله وحده.

المعلّم بطرس البستاني،

من كتاب دائرة المعارف، المجلد الأول، بيروت، دار المعرفة، [د.ت.]، ص ٣-٤.

###

خطاب تعليم النساء

"ومن العجب أننا نرى كثيرين من أبناء هذا الزمان، حتّى في الأماكن المتمدّنة، قد أهملوا هذا الجنس غير مرتضين بترفيته من حالته المتوخّشة إلى حالة تليق بمن يشاركونهم في القوى العقلية، ويساعدتهم على إصلاح أحوال الجمهور والبلاد. وآخرين يبذلون همّتهم في منع النساء من التمتع بما من شأنه أن يصلحهنّ خلقاً وأخلاقاً، كما سنبيته إن شاء الله تعالى. وهم بذلك ينزلون المرأة دون منزلتها المعينة لها من بارئ الكون، ويختلسون منها تلك الحقوق التي أقامها لها الله، عزّ وجلّ.

وأما النساء في هذه البلاد، ولئن كنّ أرقّ حالاً وأرفع درجة ممّا هنّ في بلاد الأمم الوثنيّين، فإنّهنّ لم يبلغن الدرجة المطلوبة من المعرفة والتمدّن ممّا يقتضيه نجاح البلاد، وتقدّم الأهالي. وكأهنّ في حدّ متوسط بين برابرة الدنيا وتمدنيّتها: فهنّ، بالنظر إلى نساء الهند مثلاً، متمدّنات؛ ولكن بالمقابلة مع نساء أوروبا، لم يزلن بمعزل عن ذلك. فكم إمراة، بين الكرّات^١ الكثيرة في بلادنا، تعرف القراءة؟ وكم نرى مدرسة في كلّ برّ الشام أُقيمت لأجل تعليمهنّ؟ أو ليس من ينكر احتقارهنّ، وجهلهنّ في الدين والدنيا، كمن يحاول إنكار وجود الشمس في رابعة النهار؟

^١ الكرّات: ج. الكرة: مائة الف

ولا يخفى أنّ للمرأة اختصاصات ليس للرجل حظّ فيها، وبالعكس. غير أنّهما قد يشتركان في حقوق متساوية بينهما، ومن جملتها ما نحن في شأنه. وهل توجد شريعة تمنع الرجل من تحصيل ما لا بدّ له منه لأجل مباشرة ما اشترك فيه من الأعمال مع المرأة، أو انفرد به عنها، وإتقانه جيّدًا؟ فلا يجب إذن أن توجد شريعة أو عادة أو عائق آخر يمنع المرأة من التمتع بحقّها من هذا القبيل.

ولماذا لا نقول عن الرجل أنّه، في هذا المعنى بالنظر إلى المرأة، كالمرأة بالنظر إليه. وإذا وُجد بينهما فرق فيكون قليلًا لا يُلتفت إليه. ولو أهمل الرجل من كلّ عناية ومُنِع عنه كلّ وسائل المعرفة والتمدّن، كما يكون الحال غالبًا مع المرأة، أفما كنّا نراه قد تقهقر إلى درجة النساء، إذا لم يتجاوزها الخطأ؟

ثمّ لو سلّمنا أنّ للرجل وحده حقًا في التعلّم والتمدّن والتمتّع بخيرات هذه الحياة والحياة المقبلة، أفما يلزمنا التسليم بوجود تعليم النساء لكي يتيسّر له الحصول بسهولة على هذه الحقوق. إذ من المعلوم الذي لا يشوبه ريب أنّه لا يمكن وجود العلم في عمارة الرجال دون وجوده في عمارة النساء، كما أنّه لا يوجد نساءً عالمات في عالم من الرجال جاهل. وذلك لوجود العلاقة الرابطة بين الطرفين، وتأثر أحدهما بالآخر. وما خرج عن ذلك فنادر لا يُبني عليه حكم. أو ما نرى المرأة مرارًا كثيرة تشغل مكان الرجل عند عجزه عن القيام بحقّ واجباته، أو فقده، فيضطرّها الأمر إلى مباشرة كثير من الأعمال المختصّة به. وأحيانًا نرى الرجل نفسه في اضطرار كلّّي إلى المرأة لكي تأخذ بيده وتساعدته في الرأي والعمل.

أمّا فوائد تعليم المرأة فكثيرة. فمنها ما يرجع إلى المرأة نفسها. ومنها ما يعود إلى زوجها. ومنها ما يرجع إلى أولادها. ومنها ما يشمل العالم أجمع. وقد سبقت الإشارة بالإجمال إلى كثيرٍ من ذلك.

فالناتج ممّا تقدّم أنّه، إذا حاولنا إصلاح قوم، يكون تعليم النساء هو الدرجة الأولى من السّلم، والباب الذي يجب أن يُفتح أوّلًا، مبتدئين في ذلك من صغرهنّ. وأمّا الذين يتكون النساء وراءهم ويأخذون في تعليم الصبيان أو الشبّان، فهم كمن يضع رجلًا على الأرض وأخرى في السحاب. وتراهم في الغالب يقصّرون في مطلوبهم، وبالكدّ^٢ يكون جهدهم كافيًا لإصلاح ما تفسده النساء. لأنّهم كلّما بنوا صومعة تراهنّ يهدمن برجًا، وكلّما رفعوهم^٣ درجةً تراهنّ يحطّطنهم درجات. فإنّ ما بينيه الرجل في مائة عام قد تهدمه المرأة في سنةٍ واحدة. وكل ذلك قد ثبت بالتجربة والاختبار، وعلى من شكّ تحقيق النظر وجودة الاعتبار. ولعلّ ما قلته كافٍ للدخول في موضوع كهذا لم تجرّ فيه أقلام أسلافي من أهالي البلاد. وخلاصته: وجوب تعليم النساء بناءً على أنّ التي تمزّ السرير يمينها هي التي تحزّك المسكونة بذراعها".

^٢ بالكّد: أي بالتعب والجهد. وتقول العاتة: "بالكاد".

^٣ رفعوهم: ضمير المفعول للشبّان.

قُدّم بطلب العمدة العاملة (في الجمعية السورية الأولى) وذلك في بيروت داخل جلسة مفتوحة في ١٤ ك، سنة ١٨٤٩ مسيحية" وقد نُشر أوّلًا في مجموعة أعمال الجمعية المذكورة، سنة ١٨٥٣، وثانيًا ملخّصًا في الجنان (١٣) [١٨٨٣] (٢٠٧ - ٢١٤).

المعلّم بطرس البستاني،

"خطاب تعليم النساء (١٨٤٩)" نقلًا عن فؤاد افرام البستاني، الروائع، العدد ٢٢، ط.٤، بيروت، دار المشرق، ١٩٧٥، ص ٩٠، ٩٣-٩٤، ٩٧، ٩٩، ١٠٣، ١١١.

###

نفيّر سورية أو الوطنيّة الرابعة

بيروت في ٢٥ ت ١ سنة ١٨٦٠

يا أبناء الوطن

لقد أكثرنا ذكر الوطن في نشراتنا وما ذلك إلّا لأنّه أحبّ شيء إلى سمع من كان مُحبًّا لوطنه وألذّ ما زُيّن به جيد العربية من الكلمات المولّدة. فسورية المشهورة ببرّ الشام وعربستان هي وطننا على اختلاف سهولها ووعورها وسواحلها وجبالها. وسكّان سورية على اختلاف مذاهبهم وهيئاتهم وأجناسهم وتشعباتهم هم أبناء وطننا. والوطن أشبه بسلسلة متّصلة كثرت حلقاتها؛ طرفها الأوّل منزلنا أو مسقط رأسنا بمن حواه. وطرفها الآخر بلادنا بمن عليها. ومركز طرفيها ومغناطيسيها قلبنا أو هما مركز قلبنا ومغناطيسه. ومن شأن الجاذبيّة القويّة التي للوطن طبعًا نحو بنيه أن تضبطهم بعزم شديد داخل دائرته مهما كان رديئًا وتمسك بحبال قلوبهم وتجذبهم إليه جذبًا عنيقًا لتردّهم إليه إذا غابوا عنه وإن تكن أرض غربتهم أحسن منه. ومن الأقوال السائرة: لو لم يكن الوطن قتّالا كانت بلاد السوء خرابًا. وبمقدار ما تكون حلقات سلسلة الوطن الماديّة أو الأدبيّة أقرب إلينا، يكون تعلقنا به أشدّ وميلنا إليه أقوى. فمزلنا هو أحسن المنازل وأبناء وطننا هم أحسن الناس عندنا وهكذا. وما أصدق ما قيل: السرّ بالسكّان لا بالمنزل. فمن جال في العالم، ولاحظ البلدان وسكّانها، يظهر له ظهور الشمس في رابعة النهار أنّ الوطن، مهما كان له من المحاسن، فقد يعطّله شرّ سكّانه، ومهما كان رديئًا في ذاته فقد تصلحه محاسن أهله.

يا أبناء الوطن

لأهل الوطن حقوق على وطنهم كما أنّ للوطن واجبات على أهله. فبمقدار ما تكون تلك الحقوق مستوفية حقّها يزيد التعلّق بالوطن والرغبة واللذّة في تأدية تلك الواجبات وذلك أوضح من أن يُبيّن. فمن الحقوق التي على الوطن لبنية الأمانة على أفضل حقوقهم وهي دمهم وعرضهم ومالهم. ومنها الحرّيّة في حقوقهم المدنيّة والأدبيّة والدينيّة، ولا سيّما حرّيّة الضمير في أمر المذهب، وما أكثر الأوطان التي ذهبت شهداء لهذه الحرّيّة. ومّا يزيد أبناء الوطن حبًّا لوطنهم الإشعار بأنّ البلاد بلادهم، سعادتهم في عمارها وراحتها، وتعاستهم في خرابها وشقاوتها. ومّا يزيدهم رغبةً في نجاحه، وغيره على تقدّمه، أن تكون لهم يد في أعماله وتداخل في صوالحه. وبمقدار ما تكون

المسؤولية الموضوعة عليهم أكثر تكون هذه الحساسيات أشدّ وأقوى. ومن الواجبات التي على أبناء الوطن لوطنهم حبّه. وقد ورد في الحديث: "حبّ الوطن من الإيمان". وما أكثر الذين بذلوا حياتهم وكلّ ما لهم حبّاً بوطنهم. وأمّا الذين يبذلون حبّ الوطن بالتعصّب المذهبيّ، ويضخّون خير بلادهم لأجل غايات شخصيّة، فهؤلاء لا يستحقّون أن يُنسبوا إلى وطن وهم أعداء له، وألحق بهم الذين لا يبذلون جهدهم في منع وقوع الأسباب التي من شأنها ان تضرّ بالوطن أو في تخفيفها بعد وقوعها. وما أقلّ الذين أظهروا في هذه الأيام الصعبة من أبناء هذه البلاد حبّهم لوطنهم. فإنّ الذي أطلق البارودة الأولى ورفع الحجر الأوّل عن فم البركان الهائل الذي انفتح فأهلك العباد وأحرب وسوّد صحائف التاريخ بالارتكابات القبيحة التي ستبقى نقطة سوداء في تاريخ سورية ما دامت السماء سماء والأرض أرضاً. وكذلك الذين لم يجتهدوا في سدّ فم تلك البارودة وفوهة ذلك البركان هم جميعاً مذنبون إلى وطنهم وقد قصّروا في تادية واجباتهم له.

وإنّنا ننتهز هذه الفرصة لإيضاح حاسيات الشكر والممنونيّة نحو إخوتنا الذين هم على الجانب الآخر من بحرنا ووراء الأتلانتيك ونحو بنهم الذين هم ضيوف وطننا لما أظهره ولا يزالون يظهرونه من المساعدات المتواصلة لأبناء وطننا توبيخاً لنا.
يا أبناء الوطن

إنّ بلادنا المشهود لها بأنّها من أحسن البلدان هواء وماء وخصباً ومركزاً وألدها ذكراً وأعظمها فخراً قد مضت عليها أجيال كثيرة وهي عرضة لفساد قوم غير متمدّنين من أهلها ولذلك تروّحاً متأخّرة عمّا سواها من البلدان وقد زادت خراباً بواسطة الحركات الأخيرة ولكن نؤمل أنّه بعناية الباري سبحانه وتعالى وبهمّة دولتنا العليّة والدول العظام المتحابّة معها ستكون الضرية الحاليّة التي وصل صوتها إلى أقصاء المسكونة مقدّمة خير عظيم وافتتاح عصر جديد لسورية. وفي ذلك كفاية ليتذكّر أولو الألباب:

قل لمن يحمل همّاً إنّ همّاً لا يدوم
مثلما يفنى السرور هكذا تفنى الهموم

يا أبناء الوطن

نحذركم من أربعة أمور وهي: التعنّت والتحكّم والتعصّب والبطل. فإنّها ليست من الخير في شيء. وننبهكم إلى الكلمة الذهبية وهي: كما تريدون أن يفعل الناس بكم إفعالوا أنتم أيضاً بهم هكذا. ونذكركم في أمر: وهو أنّه ليس للإنسان وطن حقيقيّ في هذا العالم بل وطنه الحقيقيّ في عالم الأرواح وراء القبر حيث يبقى إلى أن يُنفخ في الصور ويُحشّر للمحاكمة وما أكثر الذين ذهبوا من إخوتنا بهذه السنة إلى ذلك الوطن الثابت. تعدّدت الأسباب والموت واحد. فسيلنا الاستعداد لذلك الوطن وذلك اليوم.

من محبّ للوطن

المعلّم بطرس البستاني،

من كتاب المعلّم بطرس البستاني، ط. ١، بيروت، دار فكر للأبحاث والنشر، خريف ١٩٩٠، ص ٢١-٢٣.

####